مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies) ج وهران2/ المجلد 10 ع 3 / 16 /06/ 2021
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

آراء تربوية للرّاغب الأصفهاني من خلال رسالته "في فضيلة الإنسان بالعلوم"

Some pedagogical ideas of Ragheb Asfahani in his letters « the virtue of human through science ».

د/ طيبي سيد أحمدDr TAYEBI SID AHMED sidahmed092011@hotmail.fr	فلسفة	كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله.

DOI : 10.46315/1714-010-003-002

الإرسال: 2020/07/29 **القبول**: 2020/10/30 **النشر**: 2021/06/16

ملخص: يدرس هذا المقال بعض الآراء التربوية للراغب الأصفهاني (502 ه) التي جمعها في رسالته "فضيلة الإنسان بالعلوم"، ولعل أهمية هذه الدراسة أنها تتحدد في نقطتين:

أولا: أنها بيّنت أن رسالة "فضيلة الإنسان بالعلوم" هي رسالة في التربية لها أبعاد فلسفية في حياة الإنسان.

ثانيا: أنّها عرضت درسا يفيد في تأصيل الوعي التربوي في فضاء الفكر العربي الإسلامي الراهن.

كلمات مفتاحية: التربية؛ الفضيلة؛ الأخلاق؛ المعلم؛ المتعلم.

Abstract: (English)

This article proposes a study of some pedagogical ideas of Ragheb Asfahani died (502 h) who had gathered in his letters the virtue of man through science . The importance of the study can relate to two points.

First: It aims to highlight the philosophical withdrawal of this letter.

Second: It exposes a lesson that demonstrates educational awareness in the space of current arab-islamic thought.

Keywords : Education ; Virtue ; Moral ; Teacher ; Learner.

-مقدمة:

لا يزال البحث التربوي في التراث العربي الإسلامي من أشد الجوانب حاجة إلى اهتمام الدارسين والباحثين خاصة ما يتعلق بدائرة المرجعيات الثقافية التي يستقي منها خطابه، بين من يتوقف عند ظاهر النصوص الدينية وأبعادها اللغوية والخطابية، وبين من يسعى إلى إدراك المعاني العميقة والإشارات البعيدة، والمقصود هنا أن الفعل التربوي في هذا التراث قد تم الاشتغال فيه من ميادين مختلفة من الدين وعلم الكلام والتصوف والحديث والفلسفة، وقد تناوله العلماء وفق طرقهم وأساليبهم الخاصة.

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

ولعّل المدخل للتعرف على هذا الجانب المهم من فكر الراغب، هو ما ألّفه من كتب ورسائل، وقد نشر ذلك في عدة فصول من كتابه "الذريعة إلى مكارم الشريعة" وفي فصل بعنوان "التعلّم والتعليم" من مؤلفه "محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء" و "في مجمع البلاغة" أيضا ما يستأهل ذكره والتنويه به، كما نشر بعض الملاحظات القيّمة في مجال التربية والتعليم في رسالتين صغيرتين، هما "مراتب العلوم" و"فضيلة الإنسان بالعلوم" بيد أن المدقق في هذه الكتب والرسائل يدرك بجلاء تشابه الآراء التربوية فيها، وهو الأمر الذي حملنا على التركيز على رسالة "فضيلة الإنسان بالعلوم" الذي جمعها وحققها الباحث الأردني المتخصص وهو عمر عبد الرحمان الساريسي (2014م) ونشرها ضمن رسائل أخرى بعنوان: رسالة في أدب الاختلاط بالناس ورسائل أخرى.

من هذا المنطلق، نالت المباحث التربوية قسطا وافرا من اهتمام الراغب في هذه الرسالة، خاصة إذا علمنا أنه يحرص على البعد الأخلاقي للإنسان، وربط التربية بالفضائل الأخلاقية، وهو الأمر الذي يجعل هذا الموضوع ينتمي إلى فضاء الفكر الأخلاقي الاسلامي الذي لم يكن بعيداً عن التجاذبات الفكرية بين الموروث الفلسفي والمنقول الديني، وعليه فإن هذا المقال سيعمد لدراسة مساهمة الراغب في إبراز البعد الفلسفي للتربية، حتى يكون في الإمكان بعدها صياغة منظور عام لما يمكن أن يساعد في تأصيل الوعي التربوي بهذا التوجه راهنا، وهنا تبرز أهمية هذا المقال في كونه يسمح لنا بإدراك أبعاد السياقات المرجعية للفكر التربوي في التراث العربي الإسلامي ، وأنه تبعا لذلك، كانت هناك مجالات أخرى لهذا الفكر خارج دائرة الفلسفة اليونانية ،وأن حضور المعطى الديني كان له تأثير بارز لا يمكن تجاهله .

ومن هنا تكون الإشكالية التي نحاول الاشتغال عليها في هذا الموضوع على النحو التالي: كيف عالج الراغب الأصفهاني آداب التربية والتعليم من المنظور الأخلاقي؟ وهل يمكن الحديث عن هذه الرسالة أنها تنطوي على أفق فلسفي، أم أنها مجرد أثر نقلي لا غير؟

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الدراسات السابقة في ميدان التربية والتعليم في التراث العربي الإسلامي كانت من أكثر المواضيع ثراءً من ناحية غزارة التأليف وتنوع المرجعيات والمدارس والاتجاهات، وطبيعي أن يؤدي التعدد والاختلاف الى ظهور أنظمة تربوية عدة، إحداها تأخذ طابعا فلسفيا يونانيا، وأخرى ذات طابع عرفاني، سلوكي عند المتصوفة، وثالثة تعني بجمع وتبويب ما تم نقله من القرآن الكريم والسنة النبوية، والاعتقاد بأن الوحي هو المصدر الوحيد لهذا الفكر، وأخرى تحاول التوفيق بين هذه المدارس والمرجعيات المختلفة.

هذا، وقبل أن نفصل في عناصر هذه الدراسة يجدر بنا أن نذكر أن المنهج الذي تم اعتماده في هذا المقال قد جمعنا فيه بين التحليل والمقارنة والنقد، وذلك بغية التوصل إلى نتائج مقنعة وهادفة، ونرى أن ذلك يتوافق مع طبيعة هذا الموضوع.

أولا: في بسط الآراء التربوية في رسالته "فضيلة الإنسان بالعلوم".

يمكن القول استنادا إلى مصادر البحوث والدراسات المتوفرة عن الراغب الأصفهانيان المعلومات بشأنه قليلة وخاصة ما يتعلقبمولده ووفاته وعصره، بل وحتى شيوخه وتلاميذه، والواقع أنه لسنا هنا في مقام التفصيل في هذا الموضوع إلا أن الاختلاف قد حصل لدى الدارسين في وفاته إذ أن هناك رأيان: يتمثل الأول في ما ذهب إليه باحث أردني وهو عمر عبد الرحمان الساريسي (2014 م) الذي رجّح زمنا تقريبيا لوفاة الراغب وذلك خلال قوله: "ونرجو أن يكون كذلك من أنه توفي في العقد الأول من المائة الخامسة للهجرة أي فيما بين (400 هـ) و(410 هـ) أو نحو ذلك".(عمر عبد الرحمن الساريسي، 1986، ص45)،بينما يتجه الرأي الثاني إلى خلاف ذلك ويقر بأن وفاته كانت سنة خمس مائة للهجرة وما بعدها. حيث يثبت العاملي في مصنف أعيان الشيعة أن تاريخ الوفاة كانت سنة (502 هـ) (العاملي محسن الدين، 1983، ص160)، وأيضا رياض عبد الحميد محقق كتاب المحاضرات للراغب أنه قد توفي حدود سنة (502 هـ) وهو التاريخ الذي عليه أغلب من ترجم له المعاصرين .

أما عن آثاره فهي كثيرة إذ تناولت العقيدة وعلم الكلام والأخلاق والتربية والشعر واللغة والأدب والفقه والتفسير والحكمة والأخلاق، ومن أبرزها مقدمة التفسير وكتاب الاعتقادات والذريعة إلى مكارم الشريعة، وتفصيل النشأتين وتحصيل، ومحاضرات الأدباء ومحاورات البلغاء والشعراء، ومجمع البلاغة إلى غير ذلك مما لا نقدر على حصرها جميعا.

بيد أن ما يهمنا في هذا المجال، هو أن هذه المصادر التي ترجمت له، وإن كانت قليلة، تجمع على سعة علمه وكثرة تحقيقه وتوفره على ثقافة إسلامية متنوعة تجمع بين العلوم النقلية والعلوم العقلية إلى جانب اللغة وفنون الحكمة، الأمر الذي كشف لنا عن شخصية لها منهج فريد في تناول شتى الموضوعات في مؤلفاته استأهل به أن يكون عالما مرموقا ومحل تقدير وإكبار في الوسط الثقافي على اختلاف تياراته، وعليه يمكن أن نذكر على سبيل المثال ما قاله الإمام البيهقي (565 هـ) عنه بأنه من حكماء الإسلام "جمع بين الشريعة والحكمة في مصنفاته، وكان حظه من المعقولات أكثر(البيهقي، 1946، ص 145)، ويقول عنه الذهبي (748 هـ) أنه "العلامة الماهر والمحقق الباهر، وكان من أذكياء المتكلمين(الذهبي، شمس الدين، 1994، ص121)، أما لدى الشيعة فهو في نظرهم حكيم أصاب الحق، فالعاملي (1371 هـ) يقول عنه أن "فضله أشهر من أن ينكر، وعمله أعرف من أن يوصف، ومؤلفاته سائرة سير الشمس والقمر".(العاملي، ص160).

ومع أنه في واقع الأمر يثبت انتمائه العقدي بشكل واضح لأهل السنة والجماعة، وهذا بعد أن وقفنا على رأيه الصريح خاصة في كتابه الاعتقادات، إلا أنه كما يقول أحد الباحثين وهو عبد المجيد النجار أنه "صاحب عقلية واسعة ناقده تمكن بفضلها من حسن استخدام المعارف الحاصلة لديه في عرض آرائه وتحليلها والاحتجاج بها"، (الراغب الاصفهاني، 1988).

فإن ما يلفت النظر في جهود الراغب الأصفهاني الفكرية، أنه وضع بعض القيّم في ميدان التربية والتعليم نشرها في رسالة "فضيلة الإنسان بالعلوم" والتي حققها عمر عبد الرحمان الساريسي عام 2013 م، والتي تنطوي على أبعاد فلسفية وتربوية كونها تركز على العلم وفضله في الإنسان وتبرز دور العقل في بناءه، كما أنها تهتم بصفات طالب العلم والمعلّم. وقبل هذا نشير إلى أن التربية في اللغة تعود إلى الفعل "ربا" أي زاد ونما، فربا يربو بمعنى زاد ونما. (ابن منظور، ج1، ص82)ورباه بمعنى أصلحه وتولى أمره وساسه وقام عليه ورعاه، وقد جاء في لسان العرب: "والربابة بالكسر القيام على الشيء بإصلاحه وتربيته" (ابن منظور، ص310).

وقد اشّتق الكثير من العلماء والباحثين من هذه الأصول اللغوية تعريفا للتربية: قال الراغب الأصفهاني: "الربّ في الأصل التربية هو إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حد التمام"(الراغب الاصفهاني،2011، ص336)، وقال البيضاوي: "هي تبليغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا"(البيضاوي، ص42).

وقد عرفها علماء التربية بأنها: "عملية يقصد بها تنمية وتطوير قدرات ومهارات الأفراد من أجل مواجهة متطلبات الحياة بأوجهها المختلفة أو هي تغيير في السلوك"(عبد الغني عبود ،1977، ص157).

هذا وقد أكد الراغب في مقدمة هذه الرسالة أن "الذي حمله على تأليفها هو أنه يعرّف الأستاذ حرسه الله بالقوانين الصحيحة أن الفضيلة الكاملة والسعادة المتناهية، في تحلية النفس بالعلوم النافعة، عاجلا أو آجلا، هي المؤثرة عند العقلاء"(الراغب الاصفهاني،2013، ص142).

واضح مما تقدم، أن الراغب يحرص على ربط ميدان التربية والتعليم بالبعد الأخلاقي وهو ما سنوضحه في سياق تحليل هذا الموضوع، بيد أنه من المناسب أن نبين هنا، أن النشاط التربوي ينطلق من أفعال نفسية ينفرد بها الإنسان عن باقي الكائنات الأخرى، وهو الأمر الذي أكد عليه الراغب حينما تطرق في مؤلفه الذريعة إلى أهمية التلازم بين الإنسان والعقلانية والأخلاقية، إذ أن بهذه الخواص الثلاث يتبوأ الإنسان أفضل المراتب والمنازل: "لأن من شأن العقل أن يرى ويختار أبدا الأفضل والأصلح في العواقب، وإن كان عن النفس في المبدأ مؤنه ومشقة (....)، لذلك ينبغي للعاقل أن يتهم رأيه أبدا في الأشياء التي هي له لا عليه، ويظن أنه هوى لا عقل، ويلزمه أن يستقصي النظر فيه قبل إمضاء العزيمة".(الراغب الاصفهاني،1987، ص106).

وهكذا، فإن الإنسان صار بالعقل "خليفة الله، ولو توهم مرتفعا لارتفعت الفضائل عن العالم فضلا عن الإنسان، وبما غرسه الله تعالى منه في الإنسان اهتدى من وفقه الله إلى تزكية نفسه".(الراغب الاصفهاني،ص178).

ولذلك لم يتميز الإنسان عن الحيوان والبهائم إلا بالعقل ولم يتشرف إلا بالعلم، في هذا السياق لا يبتعد الراغب عما درج عليه الفلاسفة من قبله، فحسبه أن الإنسان لا يحقق معنى الإنسانية الحقة إلا بصرف الهمة في تربية الفكر بالعلم والعمل، وهذا لا يكون إلا بقوة العلم والنطق والفهم، حتى يكون خليقا بأن يلحق بأفق الملك فيسمى ملكا ربانيا في مقابل من يصرف همته كلها إلى تربية القوة الشهوية باتباع اللذات البدنية، فخليق أن يلحق بأفق البهائم". (الراغب الاصفهاني، ص86).

ولذلك فالإنسان كما يرى الراغب في رسالة فضيلة الإنسان بالعلوم "اختص بقوة الفكر والروية وجمع صفات النبات والحيوان، غير أنها لم تأخذ صفاته، ولهذا فإنه بهذا الفعل الذي ينفرد به عن سائر الكائنات الأخرى، فهو قادر على التوصّل إلى العلم والعمل المحكم، ولأجل ذلك جعل خليفة في الأرض، فالإنسان إذن بهذا المبدأ "جعل له، بدل كل ما أوتي الحيوانات الرؤية التي إذا جلاها واستعملها نال بها كل ذلك، وأكثر منها، وإذا لم يستعملها فهو لا شك دونها منها..." (الراغب الاصفهاني، 2013، ص152-153).

وعلى هذا، فإن مجال التربية والتعليم لدى الراغب، إنما ينطلق من الإقرار بدور النفس في تحقيق الفعل الإنساني حسب ما تقتضيه قواه النفسية: الشهوية والغضبية والعقلية، وهكذا، فإن تطهير النفس وإصلاح قواها تهدف إلى خلافة الله وكمال عبادته، لأن الخلافة حسبه هي الاقتداء بالله تعالى على قدر الطاقة البشرية في تحرّي الأفعال الإلهية، لأنه ما لم يكن طاهر النفس، لم يكن طاهر القول والفعل، فقوة الفكر تهذب حتى تحصل الحكمة والعلم، وقوة الشهوة تقمع حتى تحصل العفة والجود، وقوة الحمية تطوع حتى تنقاد للعقل. (الراغب الاصفهاني 1987، ص96).

واضح من كل ما تقدم، أنّ الراغب قد وظف عن قصد أو عن غير قصد مفاهيم فلسفية منقولة أو متعارف عليها في الموروث الفلسفي اليوناني والإسلامي، إضافة إلى استحضاره بطبيعة الحال المرجعية الإسلامية.

تكشف لنا الفكرة مدى اهتمام الراغب بالعملية التربوية ذلك أنها مفتاح حصول الفضائل وتحقيق السعادة الحقة للفرد وللمجتمع وعليه يرى أن العلاقة بين المعلمين والمتعلمين ينبغي أن تكون قائمة على آداب، يحرص كل فريق على التحلّي بها عمليا، لهذا يقول في الذريعة ما نصه "أن المترشح لتعلم الحقائق أي المتعلم أن يراعي ثلاثة أمور:

الأول: أن يطهر نفسه من رديء الأخلاق قبل الإقبال على العلم وقدم مثالا من ذلك وهو تطهير الأرض للبذر من خبائث النبات، كون الطاهر لا يسكن إلا بيتا طاهرا والثاني: أن يقلل من الأشغال الدنيوية ليتوفر زمانه (أو فراغه) على العلوم الحقيقية، ذلك أن الفكرة مثلما يقول متى توزعت تكون كجدول تفرق ماؤه، في تنشقه الجو وتشربه الأرض، فلا يقع به نفع، وإن جمع بلغ المزدرع فانتفع به.

والثالث: "ألا يتكبر على من علمه ولا على العلم، وأن يأتمر به ولا يتآمر عليه ولا يراده فيما ليس بصدد تعلمه".

(الراغب الاصفهاني، ص 240-241).

هذا، ويمكن بعد هذا، أن نعرض الآراء التربوية للراغب من خلال رسالته فضيلة الإنسان بالعلوم، حيث يستهل حديثه عن هذا الموضوع بذكره الشروط التي يحتاج إليها طالب العلم، يقول في هذا السياق: "إن ما يحتاجه إليه طالب العلم هو خمسة أشياء سماوية وهي جودة الطبع والكفاءة وطول العمر وواحد من جهة معلمه وهو النصيحة الخالصة". (الراغب الاصفهاني، 2013، ص168).

ويشرح هذه الأمور ويبدأ بجودة الطبع الذي يعنى به أن يكون لطالب العلم القابلية لتلقي مختلف العلوم ليعقبه الحفظ والفهم والتفكير والذكر ويكون ذلك بمؤازرة القدرات العقلية أو كما يسميها الراغب توابع العقل وهي الذهن والذكاء والفطنة، وفي رأيه لابد من تحديدها لتصور حقائقها، لأنها آلات للعقل بها يستقيم تفكير الإنسان بشكل مناسب، يقول الراغب في هذا السياق: "أما جودة الطبع فإن يكون قبولا، ولما يتقبله حفوظا، ولما يحفظه فهما، لما يفهمه متفكرا ولما يفكر فيه ذكورا، ويكون له مع ذهن وذكاء وفطنة، وكل ذلك قوى للعقل كالآلات".(الراغب الأصفهاني، ص168)

أما الكفاية: "فبأن يحصل له مقدار بلغة تغنيه عن الكسب ولا تصير بكثرته مشغلة عن التوفر على التعلم، وفي غنى النفس ما يكفيك من سد حاجة، فإن زاد الشيء عن ذلك الغنى صار الغني به فقيرا." (الراغب الاصفهاني، 169).

وأما طول العمر: "فيعني أن العقل لا يستحكم إلا بالتجربة، والتجربة لا تحصل إلا بمدة مديدة من العمر تختلف الأحوال بها". (الراغب الاصفهاني، ص170).

وأما العناية الصادقة فبمراعاة أشياء:

أولا: بعضها معتبر في نفسه.

ثانيا: وبعضها بإضافته إلى العلم.

ثالثا: وبعضها بالإضافة إلى المعلّم.

ويشرح الراغب هذه الجوانب الثلاثة مطولا، فيذكر أولا المعتبر نفسه يتعلق بالأخلاق ذلك أنه "لا يمكن لأحد أن يعي العلوم الشريفة حتى يمحو من ذهنه الأمور الدنيَّة، فتصلح أخلاقه كلها، فهذه العلوم لا تتصل إلا بالقلوب الطاهرة، وثانيا، فما يعتبر بإضافته إلى العلم، فيعني أن الأمور التي ينبغي أن يراعيها المتعلم أثناء تفهمه، أي الصفات التي يتحلى بها أثناء تلقيه للعلوم المختلفة وهي حسب ما يشير إليه الراغب في هذه الرسالة:

1- أن يعرف المرء الغرض الذي لأجله إليك سلك.

2- ويعرف أقصر الطرق إليه.

3- أن يقدم ما لا يسمح جهله، إذ الأهم المعتبر في كل فن بالأصول قبل الفروع، وذلك بأن يطلب جنس العلم قبل فروعه، ونوعه قبل جزئياته". (الراغب الاصفهاني، ص170-171).

يريد أن يقول أنه على المتعلم أن يحدد الهدف من العلم الذي يسلكه، ويدرك أقصر الطرق المؤدية إليه، بعيدا عن الطرق الملتوية والمعقدة، فضلا عن ما يقدمه ينبغي أن يكون أكثره وأهمه ما يخدمه، وهو ما يقتضي منه طلب الوقوف على أصول العلوم وأسسها العامة، قبل البحث عن جزئياتها وفروعها.

في هذا السياق، يقترب هنا الراغب من ابن خلدون (808 هـ) الذي ذهب في المقدمة إلى أن المتعلم يكون "أول الأمر عاجزا عن الفهم بالجملة إلا في الأقل وعلى سبيل التقريب والإجمال والأمثال الحسية ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والاستعداد ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن ...."(ابن خلدون، 1989، ص534).

ويضيف الراغب بقوله: "أنه على المتعلم أن يكون ما يحصله أكثر عناية من الاستكثار مما يعلمه، وأن يوصد على نفسه. ما قد أتقنه لئلا يند، فآفة العلم نسيانه، وأن لا يعادي ما جهله من العلوم، وأن لا يبالي بما يناله من التعب لأنّ العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، وأيضا لا يحمل نفسه فوق ما في وسعها، وأن يحميها ويروحها إذا خاف ملالها، وأن لا يستنكف من سؤال ما جهله، لأن إدراك العلم يكون كما قيل بلسان سؤول وقلب عقول. (الراغب الاصفهاني، 2013، ص ص 173-174).

ويقول الراغب أيضا في السياق نفسه أنه "على المتعلم ألا يستنكف من التعلم في الكبر كتعلمه في الصغر، وأن يكتب ممن يسمعه مما يجهله، ولا يقتصر على الكتابة حتى يضمن مستحسنه الصدر، وأيضا يجب أن لا يطلب نوعا من العلم في غير جنسه، نحو أن يطلب من الفقه أحكام الطب، وأيضا يشير الراغب إلى أن المتعلم "لا يحمله وقوع خطأ من متعاط على الحكم بفساد ذلك العلم وترك الانتفاع به وحق من برع في علم أن لا يستكثر علم نفسه بل بالإضافة إلى علمه الذي

يتعاطاه، وأيضا حقه أن يجري في طلب العلم بالاقتداء بالحق لا بتقليد الرجال وتقليد الأسلاف أو طلب الرياسة وأن يكون قصد المتعلم إلى العمل". (الراغب الاصفهاني، ص 175-177).

هذا، ومما يحتاج إليه طالب العلم أيضا "ما له علاقة بالمعلم وهو أن يعظمه ويحبه، وأن لا يستنكف ممن يتعلم منه، وأيضا لا يستنكف من جفوة تناله من معلمه وخدمة يبذلها، وأن لا يسأله تعنتا بل تفقها". (الراغب الاصفهاني، ص ص 178-179).

بعد عرض هذه العناصر المهمة في الصفات التي ينبغي أن يتجلى بها طالب العلم، وهي وجهة ودقيقة تتقاطع مع ما هو سائد في المناهج التربوية الحديثة، يأتي الراغب الأصفهاني في رسالة فضيلة الإنسان بالعلوم، إلى ذكر المعلم وواجباته، ومن جملة ما قاله ما يلي: "أن يرى بثّ العلم واجبا، وأن يعامل كلا المتعلمين بعلمه لا يفضل غنيا على فقير، وأن لا يظلم العلم بوضعه في غير موضعه، وأن يختار لكل متعلم ما يليق بطبعه، وأن ما يرتب ما يعلمه ترتيبا يسهل عليه إدراكه". (الراغب الاصفهاني، ص ص 180-181).

ويضيف الراغب أنه على المعلم: "أن لا يكون مع المتعلم ذا فظاظة فيعنف ولا سلاسة فيستّخف. وأن يتشكل عليه بشكل عدو، لكن بشكل طبيب لمريض وأيضا، ينصح المعلم بأن تكون أراءه صحيحة، لا يربح على تلاميذه الباطل، بل غرضه نصرة الحق وإفاضة الخير، لا مغالبة قرن واكتساب مال. وأخيرا يشدد الراغب على أن المعلم لا ينبغي له أن يستنكف إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم، مقتديا بمالك ابن أنس إمام دار الهجرة"(الراغب الاصفهاني، ص ص 181-182).

رأينا إذن، كيف تحددت مكانة التربية في فكر الراغب وأطلعنا على بعض الآراء التي تشكل مجالا رحبا للبحث في النظرية التربوية في فضاء الفكر الإسلامي، ويهمنا الآن أن ننظر في منزلة الراغب التربوية بالنظر إلى ما أشار إليه في هذه الرسالة.

ثانيا: في تحليل منزلته التربوية في التراث العربي الاسلامي

من خلال تتبعنا التحليلي لجهود الراغب التربوية، بدا لنا حرصه الشديد على إبراز مكانته بين رجال التربية ودارسيها، فهو قد أبان عن اجتهاد لا يعبر في واقع الأمر عن نصائح وعظية فقط، وإنما عن استراتيجية تربوية تعبر عن خلفية فكرية واضحة المعالم، ولنا أن نستدل على ذلك بالإشارة إلى أن رسالته في فضيلة الإنسان بالعلوم هي من أهم ما كتب في الفكر التربوي الإسلامي لاشتماله على الكثير من الآراء والنظريات التربوية، والباحث في هذه الرسالة يدرك بوضوح مرتبة صاحبه في الاجتهاد وذلك بفضل منهجه الدقيق في التأليف والصدق في التعبير والعمق في التحليل، ومن هنا تظهر القيمة العلمية لهذه الرسالة عند مقارنة مادتها ومباحثها التربوية بما ورد

عند بعض العلماء المشهورين في فضاء الفكر الإسلامي من أمثال عبد الرحمان ابن خلدون (808 هـ) والإمام أبو حامد الغزالي(505 هـ) وأبو علي مسكويه(421 هـ)،

ثم أن الراغب يشير أيضا في "الذريعة إلى مكارم الشريعة" إلى أن الإنسان "مركب من جسم مدرك بالبصر ونفس مدركة بالبصيرة"(الراغب الاصفهاني، ص75)، وإليهما أشار تعالى بقوله: "﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾. (قرآن كريم، سورة ص، الآيتان71-72)

مما يعني أن العملية التربوية عنده تقتضي معرفة النفس الإنسانية وطبيعتها وأن هذه المعرفة ينبغي أن تستند إلى المفهوم القرآني للإنسان، وهنا يقول الراغب في "تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين" ما نصبه: "قال الحكماء مرة أول شيء يلزم الإنسان معرفة نفسه، وقالوا مرّة أول شيء يلزم الإنسان معرفة نفسه، وقالو مرّة أول ما يلزمه معرفة الله، وليس بين هذين القولين منافاة"(الراغب الاصفهاني، ص61)، لأنه كما يقول "بواسطتها يتوصل إلى معرفة غيرها، ومن جهلها جهل كل شيء ما عداها"(الراغب الاصفهاني، ص62).

هذا، ومن الجوانب التربوية التي تفطن إليها الراغب هو أن منزلة الإنسان وقيمته التربوية لا تتمثل إلا بالنظر إلى علاقته بغيره من المخلوقات حوله (الكون، البيئة وسائر الكائنات، لا بالنظر إلى الإنسان في ذاته) (إبراهيم شوقار، ص 96)، ولهذا يؤكد الراغب على أن الفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء:

1- عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى: "﴿**وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾ (قرآن كريم، سورة هود، الآية 61) تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه ولغيره.

2- وعبادته المذكورة في قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ (قرآن كريم، سورة الذاريات، الآية55)، وذلك هو الامتثال للباري عز وجل في أوامره ونواهيه.

3- وخلافته المذكورة في قوله تعالى: ﴿**وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ**﴾ (قرآن كريم، سورة الأعراف، الآية 129)،. وذلك هو الاقتداء بالبارئ سبحانه على قدر طاقة البشر في السياسة باستعمال مكارم الشريعة. (الراغب الاصفهاني، ص91).

من هنا نفهم كيف أن بلوغ هذه المرتبة من الأعمار والخلافة والاقتداء بالباري سبحانه وتعالى هي نتيجة تكامل المعرفة الصحيحة والهادفة مع القيم الأخلاقية في صياغة المادة التربوية التي تسمح للإنسان بتحقيق رسالته في الوجود. وبفقدان هذا الانسجام الحاصل بينهما، ينزل الإنسان إلى منزلة دون منزلته، "لأن من صرف همته كلها إلى تربية القوة الشهوية باتباع اللذات البدنية، يأكل كما تأكل الأنعام، فخليق به أن يلحق بأفق البهائم". (الراغب الأصفهاني، ص86).

هذه هي بعض المعاني التي يقصد بها الراغب في سياق فكره التربوي وهي أن يعي الإنسان غايته في الحياة ويبذل قصارى جهده لصياغة هدف واضح للفعل التربوي وفق منهج متكامل يشمل كل الأبعاد الجسمية

والنفسية والعقلية وغيرها، كما يمتد يشمل الفرد والمجتمع بكل مكوناته، وتبعا لذلك، فإن التربية عند الراغب هي المحور الذي يدور عليه التعليم والمرجع في سلوك المتعلم، حيث أن مجالاتها عديدة ومتكاملة في الوقت نفسه، فالتربية الجسمانية بالنسبة إليه تدل على ضرورة أهمية الصحة الجسمية والاعتناء بها ذلك أن: "صحة الجسم قلة الطعم، وصحة الروح اجتناب الآثام"(الراغب الاصفهاني، ص543)، وهنا يعطينا بعدا تربويا واضحا وهو أنه "إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة والبطنة تذهب الفطنة، وقيل لا تسكن الحكمة بطنا ملئ بالطعام".(الراغب الاصفهاني، ص 542)

ويدعم أيضا إلى المحافظة على النظافة وطهارة الجسم وفضلا عن طهارة الروح حيث يقول: "للنفس نجاسة، كما للبدن نجاسته، لكن نجاسة الجسم تدرك بالبصر ونجاسة النفس لا تدرك إلا بالبصيرة". (الراغب الاصفهاني، ص 96) ثم أنه أيضا اعتنى بذكر العقل وصفاته وأنواعه ويجعل منه جانبا مهما للتربية، ومن أقواله الدالة على ذلك: "عاقل بلا أدب كشجاع بلا سلاح، العقل والأدب كالروح والجسد، وقيل العقل بلا أدب كأرض طيبة خربة".(الراغب الاصفهاني، ص 18-19).

وهنا يجعل للعقل السبيل إلى إدراك الشرع وإلى معرفة الحكمة، نلتمس هذا من خلال قوله: "العقل لن يهتدي إلا بالشرع والشرع لا يتبين إلا بالعقل." (الراغب الاصفهاني، ص140.

أما عن التربية الدينية أو الاجتماعية فإنها تبدأ عنده بمعرفة الله تعالى حيث يقول: "أما معرفة الله المكتسبة بمعرفة توحيده وصفاته وما يجب أن يثبت له من الصفات، وما يجب أن ينفي عنه". (الراغب الاصفهاني، ص200) غير أن هذه المعرفة تبدأ بمعرفة الإنسان لذاته فيقول: "معرفة الله ليست تحصل إلا بأن تعرف النفس، لأنك إذا عرفتها على الحقيقة فقد عرفت العالم، وإذا عرفت العالم فقد عرفت أنه محدث وأنه لابد له من محدِث لا يشبه المحدَث بوجه، وذلك هو غاية الله تعالى". (الراغب الاصفهاني، 1988، ص.66).

وهنا نأتي إلى التربية الأخلاقية التي تتمثل في حصول الخلق المحمود ويكون ذلك بطهارة النفس، ووجوب اكتساب الفضيلة المحمودة، فالأول يعني به أن طهارة النفس: " تكون بإصلاح القوى الثلاث، الفكرة بالتعّلم، والشّهوة بالعفة، والحميّة بالشجاعة، وبتمام ذلك يحصل للنفس العدالة والإحسان، وهذه هي جماع المكارم." (الراغب الاصفهاني، 1987، ص3).

أما الثاني فيقصد به الراغب أن على الإنسان: "أن يكتسب في كل فضيلة خلقا ويجعل نفسه ذات هيئة مستعدة لذلك، وأن يكون على هيئة الأسخياء والشجعان والحكماء والعدول." (المصدر نفسه، ص125).

ثم أن كل فضيلة تحصل لديه بتعلم: "يحتاج إلى زمان وتدرب وممارسة، ويتقوى الإنسان فيه درجة فدرجة، وإن كان فيهم من يكفيه أدنى ممارسة وفيهم من يحتاج إلى زيادة ممارسة، وذلك بحسب اختلاف الطبائع في الذكاء والبلادة." (المصدر نفسه، ص124)

وهنا يقترب من مسكويه الذي يذهب إلى أن المربي ينبغي أن يتدرج في تعليم الناشئة اذ يقول: "يربّى على أدب الشريعة ثم ينظر بع ذلك في كتب الأخلاق ثم ينظر في الحساب والهندسة..." (مسكويه، د.ت، ص. 60)

أما الإمام أبو حامد الغزالي، فإنه لا يبتعد عن ما درج عليه الراغب، فتراه مثلا يقدم طهارة النفس عن ردئ الأخلاق فيقول: "كم من طالب ردئ الأخلاق حصل العلوم، فبهات ما أبعده عن العلم الحقيقي النافع في الآخرة الجالب للسعادة فإن من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصي سموم قاتلة مهلكة." (الغزالي، د.ت، ص 83). من هنا نفهم أن الآراء التربوية عند الراغب الأصفهاني، تتفق من حيث الغاية والهدف مع مسكويه والغزالي، وغير ذلك من الفلاسفة والعلماء. في فضاء التراث العربي الاسلامي.

وعليه تصبح التربية عند الراغب قائمة على فقه النفس وغايتها تأسيس علم بالإنسان الذي يتحقق بتطهير النفوس والأبدان ومعرفة عللها وكيفية تهذيبها على نحو عملي يترق فيه الإنسان نحو الكمال الإنساني وفق رؤية أخلاقية محكومة بالعقل والشرع.

ثالثا تأصيل فكره التربوي واستثماره راهنا: الحاصل من كل ما قلناه، أن ما أنجزه الراغب الاصفهاني من هذا الاجتهاد الواضح في ميدان التربية والتعليم لا يعبر في واقع الأمر عن نصائح وعظية، وإنما هي كما قلنا سابقا عن خطة تربوية تعبر عن خلفية فكرية واضحة ومتوازنة، بحيث استطاع أن يقدم لنا نموذجا فكريا مستقلا بعيدا عن صراع المرجعيات التي سادت التراث العربي الإسلامي، وهنا، يمكن أن نطلق على هذا التوجه توفيقيا، كونه يستفيد من عناصر وخصائص المدارس التربوية الفلسفية والصوفية والنصيّة وغيرها، بحيث يستخدم أساليب تغلب عليها حينا ثقافته الدينية، فيستشهد بالقرآن والحديث، وحينا آخر، يغلب عليه جانب العقل فيأخذ عن أفلاطون (347 ق.م)، وأرسطو (322 ق.م) أو من فلاسفة الإسلام مثل مسكويه والغزالي وغيرهم. دون أن تتجاهل بعض من ملامح الزهد في بعض آرائه التربوية، حرصا منه على التكامل بين طهارة الجسم وطهارة الروح.

بعد هذا، يمكن الاستفادة من هذا الرصيد التربوي في التراث العربي الاسلامي واستثماره وتأصيله راهنا، وعدم التوجس من الانفتاح على المناهج التربوية الغربية المعاصرة، والتعامل معها بكل تواضع ومسؤولية وروح نقدية، وصياغة مشروع تربوي جديد يجمع بين الأصالة الاسلامية والإبداع الغربي.

يبدو لنا إذن أن فكره التربوي محكوم برؤية أخلاقية جامعة بين العقل والشرع، وهذا لا يعني أن العمل الذي أنجزه يخلو من الأخطاء المعرفية أو المنهجية، ولسنا ندعي أنه قد أحاط بكل شيء يتعلق بالتربية تنظيراً وممارسة، وعلى الرغم من هذا، لا يعني أنه صار من الماضي، بل علينا أن ندرس فكره التربوي من أجل استثماره في واقعنا العربي الإسلامي الراهن.

- **خاتمــة:**

في ختام هذا المقال، بجدر بنا أن نستنتج أن هذه الآراء التربوية التي قدمها لنا الراغب في هذه الرسالة، تدل على سعة علمه وعلى دقة منهجه التربوي الذي يحرص على إصلاح النفس وتهذيبها، مما يدل على قيمته العلمية والتربوية خاصة وأنه جمع في تأليفها بين ما هو نقلي وعقلي حيث استفاد من

ثقافته الدينية وحسه العقلي، وعلى الرغم من أنه لم يكتب كثيرًا في ميدان التربية، إلا أن ما دوّنه بخصوص هذا الموضوع يحتاج إلى مزيد بحث ودراسة تؤكد على دوره في تأصيل الفكر التربوي الإسلامي في فضاء الفكر العربي الإسلامي وإمكانية قراءته راهنا بغية حل الكثير من الإشكاليات التربوية في واقعنا العربي المعاصر.

المراجع:

-ابن خلدون (1989)، المقدمة (الطبعة التاسعة)، بيروت: دار القلم.
-ابن منظور (د.ت)، لسان العرب، (الطبعة الأولى)، بيروت: دار صادر.
-أبو حامد الغزالي (د.ت)، إحياء علوم الدين، (الطبعة الأولى)، بيروت: دار الكتاب العربي.
-ابو علي مسكويه (د.ت)، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، (الطبعة الأولى) بيروت: مكتبة الثقافة الدينية.
-البيهقي(1946م)، تاريخ حكماء الإسلام، (الطبعة الأولى)، دمشق: مطبعة الترقي.
-الراغب الأصفهاني (1987م)، الذريعة إلى مكارم الشريعة، (الطبعة الثانية)، المنصورة، مصر: دار الوفاء للطباعة والنشر.
-الراغب الأصفهاني (1988م)، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، (الطبعة الأولى)، بيروت: دار الغرب الاسلامي.
-الراغب الأصفهاني (2011)، مفردات ألفاظ القرآن، (الطبعة الأولى)، دمشق: دار القلم، دمشق، دار الشامية، بيروت.
-الراغب الأصفهاني (2013م)، رسالة في فضيلة الإنسان بالعلوم، (الطبعة الأولى)، عمان: أروقة للدراسات والنشر.
-الراغب الأصفهاني (د.ت)، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، (الطبعة الثانية)، بيروت، دار صادر.
-شمس الدين الذهبي (1994)، سيرّ أعلام النبلاء، (الطبعة الأولى)، بيروت: مؤسسة الرسالة.
-عبد الغني عبود (1977)، في التربية الاسلامية (الطبعة الأولى)، القاهرة: دار الفكر العربي.
-عمر عبد الرحمان الساريسي (1986)، الراغب الأصفهاني وجهوده في اللغة والأدب، (الطبعة الأولى)، عمان: مطبعة الأقصى.
-محسن الأمين العاملي (1983)، أعيان الشيعة، (الطبعة الأولى)، بيروت: دار التعارف للمطبوعات.